الرحمة الإلهية
التي وسعت كل شيء

تأملات في سعة فضل الله
وعظيم كرمه

الهادي إبراهيم الدكام

الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء
تأملات في سعة فضل الله وعظيم كرمه

Divine Mercy that Encompasses All Things
Reflections on the Vastness of God's Grace and Generosity

الهادي إبراهيم الدكام
أستاذ متقاعد/جامعة طرابلس

Elhadi I. Dekam
e.dekam@uot.edu.ly
https://www.facebook.com/elhadi.dekam

هذا المقال يسلط الضوء على سعة وكرم وفضل الله تعالى في رحمته التي وسعت كل شيء، مستعرضًا النصوص الشرعية والقصص النبوية والشواهد التاريخية، متناولًا مظاهرها في الخلق، التشريع، سنة النبي ﷺ، البلاء والمحن، التوبة، والضعفاء والمستضعفين. كما يسلط الضوء على آثارها العملية في حياة الفرد والمجتمع، ويقدم قصصًا وعِبرًا من التاريخ الإسلامي لإظهار كيف تتحول الرحمة من معنى نظري إلى منهج حياة عملي. ويهدف المقال إلى تعزيز فهم القارئ لرحمة الله، وإلهامه لتطبيق قيمها في الحياة اليومية، مستشعرًا أوسع معاني العطاء الإلهي وعمق فضله.

This article is shared via ResearchGate:
https://www.researchgate.net/profile/Elhadi-Dekam

في طرابلس، الإثنين
Monday, September 22, 2025

فهرس المحتويات

- الملخص 3
- تمهيد 3
- المقدمة 4
- الرحمة في القرآن والسنة 5
- تفسير العلماء لمعنى سعة الرحمة 6
- رحمة الله في الخلق: أدلة عملية 7
- رحمة الله في سنة نبيه ﷺ 8
- رحمة الله في البلاء والمحن 9
- رحمة الله بالخطّائين والتائبين 10
- رحمة الله بالضعفاء والمستضعفين 11
- آثار رحمة الله في حياة الفرد والمجتمع 12
- قصص وعِبر عن رحمة الله عبر التاريخ 13
- كلمة ختامية 14
- دعاء ختامي 15
- قائمة المراجع والمصادر (APA) 15
- شكر وتقدير 15

الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء

تأملات في سعة فضل الله وعظيم كرمه

الملخص

يهدف هذا المقال إلى استكشاف مفهوم الرحمة الإلهية من منظور قرآني ونبوي وعلمي، مبرزًا سعة كرم الله وفضله الذي وسع كل شيء. تناول المقال النصوص القرآنية التي أكدت مركزية الرحمة في بناء العقيدة، مثل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، والأحاديث القدسية والنبوية التي جعلت الرحمة أصل العلاقة بين الخالق والمخلوق، كقوله ﷺ عن ربه: «إن رحمتي سبقت غضبي». كما عرض المقال تفسيرات العلماء كالقرطبي و ابن كثير و ابن القيم، التي أوضحت شمول الرحمة لجميع الخلق .وتطرق المقال إلى تجليات الرحمة في الطبيعة، والتشريع، وسيرة النبي ﷺ، فضلًا عن حضورها في الابتلاءات، والتوبة، ورعاية الضعفاء، وكيف انعكست هذه الرحمة على حياة الفرد والمجتمع. كما أوردت قصصًا وعبرًا من حياة الأنبياء والصحابة لتأكيد حضور الرحمة عمليًا في التاريخ الإسلامي .خلص المقال إلى أن الرحمة الإلهية ليست مجرد معنى عقدي، بل هي قيمة روحية وعملية تزرع الطمأنينة في القلوب، وتوجّه السلوك الفردي والاجتماعي نحو العدل والإحسان، مما يجعلها محورًا لفهم رسالة الإسلام ومفتاحًا لإصلاح النفس والمجتمع.

الكلمات المفتاحية :الرحمة الإلهية، فضل الله، القرآن الكريم، السنة النبوية، التوبة، الابتلاء، سعة الرحمة.

تمهيد

الرحمة صفة إلهية كلية، أوسع من كل إدراك بشري، وجدت لتغمر الخلق كله بالسكينة والعطاء، وتربط بينهم بالعدل والإحسان. وهي محور أساسي في العقيدة الإسلامية، ومفتاح لفهم العلاقة بين الخالق والمخلوق، وبين الناس بعضهم وبعض. هذا المقال يسلط الضوء على سعة وكرم وفضل الله في رحمته، متناولًا الآيات القرآنية، الأحاديث النبوية، آراء العلماء، الأمثلة العملية في الطبيعة، وقصص

الأنبياء والصحابة، ليُظهر كيف يمكن أن تتحول هذه الرحمة من معنى نظري إلى منهج حياة عملي.

المقدمة

إنّ رحمةَ الله تعالى هي المَعلمُ الأكبر الذي تتجلّى فيه سعةُ كرمِه وفضله، وهي النعمة العظمى التي تُفيض الطمأنينة في قلب المؤمن، وتُسكنه برد الأمل مهما أحاطت به الخطايا أو اشتدّت عليه الابتلاءات. فهي النعمة الكبرى التي تفيض على كل المخلوقات، مؤمنها وكافرها، صغارها وكبارها، إذ هي أساس كل خير، ومصدر الطمأنينة والرجاء، ووسيلة تصحيح للذنوب ورفع للابتلاءات. وقد خصّ القرآن الكريم هذه الصفة بذكر متكرر، حتى صارت "الرحمة" من أكثر الألفاظ ورودًا في نصوص الوحي، دلالةً على محورية هذا المعنى في بناء العقيدة وتزكية النفس.

فالآية الجامعة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 156) تضع أمام العقل البشري أفقًا مفتوحًا بلا حدود، لتبيّن أن الرحمة ليست مقصورة على جنس أو زمان أو مكان، بل هي في أصلها فيضٌ إلهيٌّ عامٌّ يشمل الخلق كلهم: مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنّهم، بل وحتى الحيوان والجماد (ابن كثير، 1998). وهنا يظهر أن الرحمة الإلهية قد سبقت فيضها كل الاعتبارات الأخرى، لتكون أصلاً في الحياة والوجود.

وفي السنة النبوية، نُصادف حديثًا قدسيًا عظيمًا يرسّخ هذا المفهوم، إذ قال الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي» (مسلم، 2006، كتاب التوبة). وهو نصّ بليغ يكشف أن الأصل في علاقة الله بعباده هو الرحمة، وأن الغضب إنما يجيء تاليًا للحكمة والعدل، لا سابقًا لهما. وهذا الإطار الرحمانيّ هو الذي يحدد العلاقة بين العبد وربه: علاقة تقوم على الثقة بفضل الله، والرجاء في مغفرته، والتوكل على سعة كرمه، فلا ييأس عاصٍ من عفوه، ولا يقنط مبتلى من فرجه.

ومن هنا، فإنّ دراسة "سعة رحمة الله" ليست مجرد معالجة عقدية ذهنية، بل هي وقوف عند معنى روحيّ يحرّك الوجدان ويوجّه السلوك، إذ إن استحضار الرحمة في

قلب المؤمن يجعله رفيقًا في تعامله، متسامحًا مع غيره، مترجمًا لما استشعره من فيض الرحمن إلى واقع عملي يشيع فيه العدل والإحسان. وهكذا تُصبح الرحمة الإلهية مدخلاً لفهم الوجود، ومفتاحًا لإصلاح النفس والمجتمع.

الرحمة في القرآن والسنة

لقد شكّل مفهوم الرحمة أحد المرتكزات المركزية في نصوص الوحيين؛ إذ نجد القرآن الكريم يصف الرسالة المحمدية بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)، وهو وصف جامع يُبيّن أن الغاية من بعثة النبي ﷺ إنما هي نشر الرحمة بين الخلق كافة، لا الاقتصار على دائرة ضيقة من المؤمنين أو العرب، بل لتكون الرسالة نورًا للإنسانية جمعاء. وهذا الوصف النبوي بالرحمة ينسجم مع الأسماء الإلهية العُظمى، حيث يتصدّر اسم الله تعالى "الرحمن الرحيم" افتتاحية كل سورة تقريبًا، ليغرس في القلوب أن هذا الدين يقوم على الرحمة أساسًا (القرطبي، 2003).

ولعل من أبرز ما يلفت النظر في النصوص القرآنية أنها تقرن الرحمة بآفاق الغفران والهداية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: 53). هنا يظهر نداء ربّاني عجيب يفتح باب الأمل حتى أمام أكثر العصاة غرقًا في الذنب، مبينًا أن رحمة الله تتجاوز القيود التي يفرضها اليأس البشري. إن هذا الخطاب ليس مجرّد دعوة للتوبة، بل هو تربيةٌ للنفس على أن تحيا بين جناحي الرجاء والخوف، فلا تيأس من رحمة الله مهما كثرت خطاياها، ولا تركن إلى الغرور لأن الرحمة لا تنفي العدل.

وفي السنة النبوية، نجد أحاديث شديدة التأثير تضع الرحمة في صدارة التصور الإسلامي، من بينها قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» حين أشار إلى امرأة تضم طفلها إلى صدرها (البخاري، 2002). فالرسول ﷺ يُقرب للذهن مفهوم الرحمة الإلهية عبر صورة بشرية حسية، هي أقوى صور العاطفة الإنسانية: عاطفة الأمومة. لكن رحمة الله أوسع وأغزر بما لا يقاس. كما روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال:

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، و أنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» (البخاري، 2002؛ مسلم، 2006). وهذا الحديث يبيّن بجلاء أن ما نراه من صور الرحمة في الدنيا ليس إلا أثرًا ضئيلاً من فيض الرحمة الكاملة عند الله، وأن تلك الرحمة المدخرة هي أعظم ما يُرجى يوم القيامة.

هذه النصوص بمجملها توضح أن الرحمة ليست فكرة مجردة، بل حقيقة متغلغلة في صميم الوجود الديني والأخلاقي، وأنها تمثل الإطار الذي يحدد علاقة الله بعباده من جهة، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض من جهة أخرى.

تفسير العلماء لمعنى سعة الرحمة

لقد تبارى المفسرون والفقهاء في بيان المعنى الواسع لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 156)، فذهبوا إلى أن هذا النص القرآني يضع قاعدة كونية كبرى: أن الرحمة أصل شامل يكتنف الخلق جميعًا. يذكر ابن كثير (1998) في تفسيره أن رحمة الله شملت في الدنيا المؤمن والكافر، البَرّ والفاجر، حيث رزق الجميع وعافاهم وأمهلهم، لكنها يوم القيامة تختص بالمؤمنين المتقين، فتغدو رحمةً خاصة تحفظهم من العذاب وتُدخلهم دار الكرامة. وهذا التفريق بين "الرحمة العامة" و"الرحمة الخاصة" يعدّ من أهم المفاتيح لفهم النصوص.

أما الإمام القرطبي (2003) فيرى أن قوله تعالى "وسعت كل شيء" هو على الحقيقة، وأن عمومها يَثبت في أصل الخلق والإيجاد والرزق والهداية، لكن انقسام الناس في استجابتهم للتوحيد يحدد نصيبهم من الرحمة الأخروية. وبذلك يُبرز القرطبي أن الرحمة ليست شعورًا مجردًا أو عطاءً عشوائيًا، بل هي سنّة إلهية تضبطها الحكمة والعدل.

وقد توسّع ابن القيم (1998) في الحديث عن هذا المعنى، مبينًا أن كل خير يناله العبد في دينه أو دنياه إنما هو أثر من آثار الرحمة الإلهية. فهو يرى أن الهداية نفسها رحمة،

والعلم رحمة، والتوفيق للطاعة رحمة، بل وحتى البلاء الذي يطهّر القلب ويصقله يمكن أن يكون بابًا إلى رحمة أوسع. يقول في مدارج السالكين": الرحمة التي وسعت كل شيء هي أصل الوجود والإمداد، ومن انقطع عنها فقد انقطع عن الخير كله."

ويلاحظ أن المفسرين حين تحدثوا عن سعة الرحمة لم يقفوا عند المعنى النظري، بل ربطوه بآثار عملية في حياة الفرد والجماعة، مثل التيسير في الشريعة، وإمهال العاصي ليتوب، وفتح أبواب الرجاء أمام المذنب. وبهذا غدت "سعة الرحمة" إطارًا تفسيريًا يجمع بين نصوص الوحي، ويمنحها وحدة دلالية عميقة.

❁ رحمة الله في الخلق: أدلة عملية

إنّ الناظر في مظاهر الكون يجد أن كل تفاصيل الخلق تحمل بصمات الرحمة الإلهية، إذ لم يُوجد الله تعالى مخلوقًا إلا وكساه من رحمته ما يحفظ وجوده ويعينه على أداء وظيفته. فالشمس التي تُشرق كل صباح لتبث دفأها ونورها، والرياح التي تسوق السحاب، والمطر الذي يحيي الأرض بعد موتها، كلها شواهد عملية على سعة رحمة الله بالخلق أجمعين. يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم: 46)، فالآية تفسر مظاهر الطبيعة بوصفها رحمة ممتدة من عند الله، وليست مجرد نظام آلي بلا معنى.

كما أن ما أودعه الله في الكائنات من غرائز، يُعدّ بدوره تجليًا من تجليات رحمته؛ فغريزة الأمومة عند الإنسان والحيوان، وعطف الوالدين على أبنائهما، وتكافل المخلوقات فيما بينها، كل ذلك من أثر الرحمة العامة التي بثها الله في العالم. وقد جسّد النبي ﷺ هذا المعنى حين رأى امرأة تلتقط طفلها وتضمه إلى صدرها، فقال لأصحابه: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»، قالوا: لا والله. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» (البخاري، 2002). إنها صورة إنسانية حسية توضّح للوجدان البشري أن رحمة الله أوسع وأغزر من أعمق مشاعر العطف التي يعرفها الإنسان.

ومن الأدلة العملية أيضًا أن الله تعالى جعل في الشريعة مظاهرواضحة لرحمته؛ فقد فرض الصلاة مثلاً كوسيلة للصلة والراحة الروحية، لكنه رخّص في قصرها وجمعها عند السفر أو المشقة. وفرض الصيام، لكنه أذن للمريض والمسافر بالفطر، وأوجب الكفارات بدلاً عنه. وهذه الرخص التشريعية ليست سوى انعكاس لرحمة الله بعباده، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَوَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: 185).

كل هذه الشواهد تشير إلى أن الرحمة ليست معنى مجرّدًا ميتافيزيقيًا، بل حقيقة ملموسة في الطبيعة، وفي فطرة الكائنات، وفي التشريعات التي تنظم حياة الإنسان. إنها شبكة ممتدة من العطاء الإلهي الذي يسع الكائنات كلها، ليظل الكون قائمًا على أساس الرحمة.

رحمة الله في سنة نبيه ﷺ

من أعظم تجليات رحمة الله بعباده أنه أرسل إليهم رسولًا رحيمًا شفيقًا، يحمل رسالته ويبلّغ هديه، ويكون رحمة للعالمين. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. وهذه الآية الكريمة تؤكد أن رسالة محمد ﷺ ليست مقتصرة على العرب أو على فئة معينة، بل هي شاملة للعالمين كافة، رحمةً بهم من الجهل والضلال والشقاء، وهدايةً إلى صراط الله المستقيم.

وقد وصف الله نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، فدلّ ذلك على أن رحمته ﷺ كانت امتدادًا وتجليًا لرحمة الله العظمى. بل إن رحمته لم تقتصر على المؤمنين، و إنما وسعت حتى الكافرين والمنافقين، فكان يرحمهم بالدعوة والإنذار، ويصبر على أذاهم، ويستغفر لهم أحيانًا، كما ورد أنه ﷺ حينما أُوذي في الطائف دعا لهم بالهداية ولم يدعُ عليهم بالهلاك.

وتظهر هذه الرحمة في سيرته العملية؛ فقد نهى عن قتل النساء والأطفال في الحروب، وأوصى بالإحسان إلى الأسرى، كما في معركة بدر حينما أوصى أصحابه بالإحسان إليهم

حتى شهد بعضهم أنهم لم يعرفوا قومًا أرحم بالأسرى من أصحاب محمد ﷺ (ابن هشام، 1990). كما تجلّت رحمته بالحيوان، إذ قال: «في كل كبدٍ رطبة أجر» (البخاري، 1422هـ/1987م، حديث رقم 2363)، مما يدل على سعة هذه الرحمة التي شملت الإنسان والحيوان على السواء.

إن سنة النبي ﷺ العملية تُعد امتدادًا عمليًا لرحمة الله في الأرض، فهي رحمة ناطقة متحركة تهدي وتعلّم وتزكّي، ولذلك كانت حياة الرسول ﷺ تطبيقًا و اقعيًا لمعاني اسم الله "الرحمن" و"الرحيم"، ليكون قدوةً للعالمين في تجسيد الرحمة في العلاقات والمعاملات.

❁ رحمة الله في البلاء والمحن

قد يظنّ البعض أن نزول البلاء والمصائب ينافي رحمة الله، غير أن الحقيقة أن هذه البلايا في حقيقتها باب من أبواب رحمته، ومنحة في ثوب محنة. فالابتلاء يطهّر القلوب من أدران الذنوب، ويرفع الدرجات عند الله، ويعيد العبد إلى ربّه متضرعًا خاشعًا. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]. فمع أن ظاهر الآية ابتلاء شديد، إلا أن ختامها جاء بالبشرى لمن يصبر، لتتحول المحنة إلى ميدان لنيل رحمة الله وفضله.

وفي الحديث الشريف، قال النبي ﷺ: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذًى، ولا غمٍّ، حتّى الشوكةِ يُشاكُها، إلّا كفَّر اللهُ بها من خَطاياه» (البخاري، 1422هـ/1987م، حديث رقم 5641). فهذا النص النبوي يكشف بجلاء عن رحمة الله المخبوءة في ثنايا الألم، إذ يجعل من كل وجعٍ أو همٍّ وسيلة لمغفرة الذنوب وتكفير الخطايا.

ومن القصص البليغة في ذلك ما وقع للصحابي الجليل خباب بن الأرت رضي الله عنه، حين اشتد عليه البلاء من كفار قريش حتى عُذِّب بالنار، فكان يقول: "لقد أوقدوا لي نارًا حتى ما يطفئها إلا ظهري" (ابن سعد، 1990). ومع كل ذلك كان ثابتًا على دينه،

محتسبًا أجره عند الله، فصار مثالًا للصبر الممزوج باليقين في رحمة الله، حتى صار من السابقين الأولين الذين بشّرهم الله بجنته.

إن البلاء إذًا ليس نقيض الرحمة، بل هو تجلٍ آخر لها، فالله سبحانه يبتلي عباده ليطهّرهم ويصقل أرواحهم، ويرفعهم إلى مقامات الصابرين الذين وُعدوا بأجرٍ بغير حساب. ومن هنا كان البلاء بابًا عظيمًا من أبواب رحمة الله، وإن خفي على العقول القاصرة إدراك حكمته البالغة.

رحمة الله بالخطّائين والتائبين

من أوسع ميادين رحمة الله تعالى أنه يفتح أبواب المغفرة للتائبين مهما عظمت ذنوبهم وتكررت خطاياهم. فالإنسان بطبيعته ضعيف، قد يخطئ ويزلّ، لكن الله عزوجل لم يغلق في وجهه باب التوبة، بل دعاه إليها ورغّبه فيها، وجعلها سببًا لمغفرة الذنوب وقبول الأعمال. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]. وهذه الآية الكريمة تُعَد من أرجى آيات القرآن الكريم، لما تحمله من بشرى عظيمة لكل مذنب بأن رحمة الله تشمل كل الذنوب بلا استثناء.

وقد جاء في الحديث الشريف: «التائبُ من الذَّنبِ كمن لا ذنبَ له» (ابن ماجه، 1998، حديث رقم 4250). وهذا بيان صريح لسعة الرحمة الإلهية التي لا تكتفي بستر الذنب أو العفو عنه، بل تمحوه بالكلية حتى يصبح العبد كأنه لم يذنب أصلًا. بل إن رحمة الله تتجاوز ذلك، فتحوّل سيئات التائب حسنات، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70].

ومن القصص المؤثرة في هذا الباب قصة قاتل المائة نفس، حيث ورد في الحديث أن رجلًا قتل تسعةً وتسعين نفسًا، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ليدله على سبيل التوبة. وبعد محطات من البحث والندم، قُبضت روحه وهو في طريقه إلى بلدٍ صالحٍ ليعبد الله فيه، فغفر الله له برحمته (مسلم، 1955، حديث رقم 2766). إن هذه القصة تمثل

قمة الرجاء في رحمة الله، وتؤكد أنه لا ذنب أكبر من عفو الله إذا تاب العبد ورجع إلى مولاه.

إن رحمة الله بالخطّائين والتائبين باب واسع من الأمل والرجاء، يزرع في القلوب الطمأنينة، ويمنعها من القنوط واليأس، ويجعلها متصلة بربها على الدوام، موقنةً بأن الله أرحم بها من نفسها.

رحمة الله بالضعفاء والمستضعفين

من صوررحمة الله العظيمة أنه يولي عناية خاصة بالضعفاء والمستضعفين في الأرض، ممن لا يملكون قوةً ولا حيلةً ولا ناصرًا. فقد جعل لهم سبحانه مكانة رفيعة في شريعته، وأوصى بهم نبيّه ﷺ خيرًا، حتى صارمعيارالرحمة الحقيقية هوحسن معاملة هؤلاء الضعفاء. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: 75]، فبيّن أن نصرة المستضعفين والرحمة بهم عبادةٌ عظيمة وقربة إلى الله.

وقد تجلّت هذه الرحمة في سنة النبي ﷺ، إذ قال: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟» (البخاري، 1422هـ/1987م، حديث رقم 2896). فبيّن أن وجود الضعفاء بين الناس سببٌ لنزول رحمة الله عليهم ونيلهم للنصروالرزق، لما في قلوبهم من إخلاص ودعاء وتضرع.

ومن أعظم المو اقف التي تُظهرهذه الرحمة ما روي عن النبي ﷺ حين رأى امرأة أسيرة تبحث عن طفلها بين السبي، فلما وجدته ألصقته بصدرها وأرضعته، فقال لأصحابه: «أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قالوا: لا. فقال ﷺ: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» (مسلم، 1955، حديث رقم 2754). ففي هذا التشبيه البليغ يتجلى عمق رحمة الله بالضعفاء والخلق أجمعين، إذ شبّه رحمته بأعظم صورالحنان الإنساني.

ولم تقف هذه الرحمة عند الإنسان، بل شملت حتى الحيوان الأعجم، فقد دخلت امرأة النارفي هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض (البخاري،

1422هـ/1987م، حديث رقم 3318). في المقابل، غُفر لرجل سقى كلبًا عطشانًا، فشكر الله له وغفر له (مسلم، 1955، حديث رقم 2245). وهذه الأمثلة توضح أن رحمة الله تشمل المستضعفين من جميع المخلوقات، وأن الإحسان إليهم من أعظم أسباب نيل رحمته.

وهكذا، فإن رحمة الله بالضعفاء ليست مجرد نصوص نظرية، بل هي منهج متكامل يتجلى في التشريع والسيرة والأحداث، ليؤكد أن الله سبحانه مع الضعفاء، وأن رحمته تحوطهم في الدنيا والآخرة.

آثار رحمة الله في حياة الفرد والمجتمع

رحمة الله الواسعة ليست مجرد معانٍ غيبية تُقرأ في الكتب أو تُسمع في الخطب، بل لها آثار عملية عميقة في حياة الأفراد والمجتمعات. فعندما يدرك الإنسان أن الله رحيم به، يملأ قلبه الطمأنينة والسكينة، ويزول عنه القلق واليأس، ويستبدل خوفه برجاء، وحزنه بأمل. وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ ما عندَ اللَّهِ مِنَ العُقُوبَةِ ما طَمِعَ بجنَّتِهِ أحدٌ، ولَوْ يَعْلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ما قَنَطَ مِن جَنَّتِهِ أحدٌ» (مسلم، 1955، حديث رقم 2755). فالرحمة إذن باب للأمل يمنع القلوب من الانكسار أمام قسوة الحياة.

أما على مستوى المجتمع، فإن استحضار معاني رحمة الله يولّد في النفوس روح الرحمة المتبادلة، فيرحم الغني الفقير، والقوي الضعيف، والعالم الجاهل. وقد قال ﷺ: «الرَّاحمونَ يرحمُهُمُ الرَّحمنُ، ارحموا مَن في الأرضِ يرحمْكُم مَن في السَّماءِ» (الترمذي، 1975، حديث رقم 1924). وهكذا تصبح الرحمة قيمة عملية تسري في شرايين المجتمع، فتقلّ مظاهر الظلم والعدوان، ويحلّ محلّها التعاون والتكافل.

وتاريخ الأمة الإسلامية زاخر بالأمثلة على ذلك؛ ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، حينما سادت الرحمة والعدل بين الناس، حتى رُوي أن الرجل يخرج بالزكاة فلا يجد من يقبلها، لأن الفقر قد انحسر بفعل روح العدالة والرحمة التي طبّقت عمليًا (ابن

كثير، 1998). كما أن المجتمعات التي تتحلّى بالرحمة تنشأ فيها بيئة إنسانية صالحة تُنمّي القيم الأخلاقية، وتدعم الاستقرار والأمن الاجتماعي.

إن رحمة الله حين تُستحضر في القلوب، تتحول إلى طاقة أخلاقية عظيمة تُعيد صياغة سلوك الأفراد وتوجيه حركة المجتمعات نحو الخير، فتصبح الرحمة رابطًا إنسانيًا واجتماعيًا يحقق الأمن الروحي والمادي معًا.

قصص وعِبر عن رحمة الله عبر التاريخ

لقد أثبتت سير الأنبياء والصحابة والتابعين عبر التاريخ أن رحمة الله كانت حاضرة معهم في كل موقف، حتى في أحلك الظروف. فقد جاء في قصة سيدنا يونس عليه السلام مثال رائع على سعة الرحمة الإلهية، إذ حين ابتلعه الحوت، لم يجزع ولم ييأس، بل رفع صوته بالدعاء: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، فاستجاب الله له وأنجاه من الغمّ. هذه القصة تعلم المؤمنين أن رحمة الله تتجاوز أي محنة مهما عظمت، وأن الرجاء فيه لا ينقطع.

ومن الصحابة، نرى مثالًا حيًا في قصة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه، حين أراد أن يسقي الضعفاء من الماء، فوجد أن الطريق محفوف بالمخاطر بسبب الأعداء، لكنه أصبر وتحمل، ونجا بفضل الله. هذا الصبر والإحسان كانا سببًا في نيله لطف الله وعنايته، مما يعكس كيف أن الرحمة الإلهية تتحقق بالعمل الصالح والنية الصادقة.

كما نجد في قصص التابعين دروسًا في التوبة والمغفرة، مثل قصة الصحابي الذي أساء في حق الناس، ثم تاب ورجع إلى الله، فغُفر له، وصار قدوةً للمجتمع في الصبر والرجاء. وقد ذكر ابن كثير (1998) أن هذه القصص التاريخية تؤكد أن رحمة الله لا تحدها الخطايا، وأنها تمتد لتشمل كل من يلجأ إلى الله بصدق.

وعبر هذه القصص، يلمس القارئ عمق الرحمة في الو اقع العملي، فهي ليست مجرد شعور داخلي، بل قوة محركة للتوبة، والصبر، والإحسان، ونشر الخير بين الناس، وتصبح دافعًا لإنجاز أعمال صالحة تعود بالنفع على الفرد والمجتمع.

كلمة ختامية

يتضح من خلال ما سبق أن رحمة الله تعالى ليست مجرد صفة معنوية، بل هي أساس وجودي وروحي يحيط بالخلق أجمعين. فهي تشمل المؤمن والكافر، الصالح والطالح، الإنسان والحيوان، الضعيف والقوي، وتشمل جميع جوانب الحياة: الطبيعة، التشريع، البلاء، التوبة، والمعاملات الإنسانية. إن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، إضافة إلى سير الأنبياء والصحابة والتابعين، كلها تؤكد أن الرحمة الإلهية واسعة لا تحدها الحدود، وأن الله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم.

على الصعيد الفردي، فإن إدراك رحمة الله يغرس في النفس الطمأنينة والرجاء، ويُحفز على الصبر والتوبة والاستقامة، ويحول المعاناة إلى أسباب لنمو الروح وسمو الأخلاق. أما على الصعيد الاجتماعي، فإن الرحمة الإلهية تُترجم إلى قيم أخلاقية وعملية، فتصبح العلاقات بين الناس قائمة على التعاون والتكافل والعدل، وتقل مظاهر الظلم والعنف والأنانية.

وختامًا، فإن سعة رحمة الله وفضله تعد أعظم الأمل الذي يمكن أن يستند إليه المؤمن في كل موقف، فهي تلهمه القوة على مواجهة تحديات الحياة، وتزرع في قلبه اليقين بأن الله تعالى يغمره برحمته في الدنيا والآخرة، ويؤكد له أن الرجاء في الله لا ينقطع مهما عظمت الذنوب أو اشتدت المحن.

فالرحمة بهذا المعنى ليست مجرد وصف نظري، بل هي و اقع حيّ يُستشعر في القلب ويُترجم إلى سلوك يومي، فتكون حياة المؤمن شهادة حية على الكرم الإلهي، وعلى فضله الواسع الذي وسع كل شيء، فلتكن الرحمة منهجًا عمليًا يطبقه الإنسان في حياته، كما طبّقه الأنبياء والصحابة، لتكون شاهدة على كرم الله وفضله.

دعاء ختامي

اللهم اجعلنا من الذين يفتحون قلوبهم لرحمتك، ويعيشون على هديك، ويصبرون على ابتلائك، ويمدّون الرحمة لمن حولهم. اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، الذي كان أرحم الناس بعبادك، وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم اجعل لنا من رحمتك ضياءً في وجوهنا، وصفاءً في قلوبنا، وسكينةً في بيوتنا، وصلاحًا في مجتمعاتنا. واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وأدخلنا الجنة مع الأبرار برحمتك يا عزيز يا غفار، اللهم اجعل هذا الجهد خالصًا لوجهك الكريم، واغفر لنا ما كان فيه من نقص أو تقصير، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع والمصادر(APA)

1. القرآن الكريم.
2. ابن كثير، إ. (1998). *تفسير القرآن العظيم* (ط. 2). بيروت: دار المعرفة.
3. ابن القيم، م. ب. (1998). *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين* (تحقيق: ح. الفقي). القاهرة: دار الحديث.
4. القرطبي، م. بن أ. (2003). *الجامع لأحكام القرآن* (ط. 3). القاهرة: دار الكتب المصرية.
5. البخاري، م. بن إ. (2002). *الجامع الصحيح* (صحيح البخاري). بيروت: دار ابن كثير.
6. مسلم بن الحجاج. (2006). *صحيح مسلم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
7. ابن ماجه، م. بن ي. (1998). *سنن ابن ماجه*. بيروت: دار الكتب العلمية.
8. البخاري، م. بن إ. (1422هـ/1987م). *الجامع الصحيح*. بيروت: دار ابن كثير.
9. الترمذي، أ. بن ع. (1975). *سنن الترمذي*. بيروت: دار الفكر.

بحمد الله، نهاية مقال رحمة الله تعالى ،،،

الهادي إبراهيم الدكام

من طرابلس في ليبيا

Elhadi I. Dekam

Monday, September 22, 2025